تعرض أن تدعم بريطانيا قيام دولة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية، مقابل توفير مزايا اقتصادية وعسكرية لبريطانيا في الدولة الوليدة، تشتمل على حقوق عسكرية لبريطانيا في الدفاع عن مصالحها الاقتصادية في بلاد العرب. فلم يكن غريباً، اذاً، أن يسارع سير مكماهون الى الترحيب بالعروض الواردة في مذكرة الشريف حسين، والتأكيد ان «جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة الى يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة»[٥] التي ينتمي اليها الشريف. لكن رد مكماهون رأى، حين تعرض الى ما سماه مسألة الحدود والتخوم، ان «المفاوضة فيها سابقة لأوانها»[٦]. وذلك في محاولة واضحة، ومبكرة، للتهرب من الالتزام بشيء معين ازاء هذه المسألة. غير أن الزعيم العربي الحّ في رسالته التالية، التي وجهها الى المعتمد البريطاني، في التاسع من أيلول (سبتمبر)، على ضرورة البتّ بمسألة الحدود هذه، ثم لم يفته، على الرغم من الحاحه، ان يؤكد للبريطانيين، في الرسالة ذاتها، «اننا ثابتون في اخلاصنا لكم، ونصرح، بكل تأكيد، بتفضيلنا لكم على الجميع، اكنتم راضين عنا، كما قيل، أو غاضبين»[٧]. وما كان لشيء أن يكون أكثر افصاحاً عن موقف الحركة العربية القومية إزاء بريطانيا من هذا الموقف الذي عبرت عنه رسائل زعيمها الاول.

ومع اتصال الجدل بين الجانبين بشأن مسألة الحدود، أبدت بريطانيا، على نحو غامض وان كان ذا دلالة، جانباً من تحفظاتها من الحدود التي يطمح الشريف حسين ان تحدد الدولة العربية الموعودة. فكان من شأن التحفظات البريطانية أن تؤدي الى اخراج «مرسين واسكندرونه واجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق ـ الشام وحمص وحماة وحلب من هذه الدولة، وذلك بالاضافة الى ضمان عدم التعرض للمعاهدات المعقودة بين بريطانيا وبين بعض رؤساء العرب، من شيوخ مناطق أطراف الجزيرة العربية، حيث تعتبر بريطانيا مطلقة التصرف في هذه الاقاليم، و«بدون ان تمس مصالح حليفتها فرنسا»، كما ذكرت رسالة سير مكماهون الموجهة الى الشريف حسين في ١٥ ذي الحجة ١٣٣٣ هـ [٨] (١٩١٥ م). كما ظهرت تحفظات أخرى من مطامح الشريف حسين تتصل بولايتي بغداد والبصرة؛ اذ طلب مكماهون، في الرسالة ذاتها، أن يعترف الجانب العربي بأن «مركز ومصالح بريطانيا العظمى الموجدة هناك تستلزم اتخاذ تدابير ادارية مخصوصة لوقاية هذه الاقاليم من الاعتداء الاجنبي عليها وزيادة خير سكانها وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة»[٩]. ومع عرض هذه التحفظات، أضاف المعتمد البريطاني مطالب أخرى تتعلق بمركز بريطانيا في الاقاليم العربية وتضاف الى ما عرضه الشريف حسين بنفسه في هذا الصدد. من ذلك، مما يتصل بالنقطة التي نحن بصدد الحديث عنها، ان بريطانيا هي التي ستمد العرب، عندما تسمح الظروف، «بنصائحها، وتساعدهم على ايجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الاقاليم»[١٠] التي لم تشملها التحفظات المذكورة أعلاه؛ ومن ذلك، أيضاً، موافقة الجانب العربي على «طلب نصائح وارشادات بريطانيا العظمى، وحدها، وان المستشارين والموظفين الاوروبيين اللازمين لتشكيل هيئة ادارية قويمة يكونون من الانجليز»[١١].

في نهاية المطاف، أعلن العرب القوميون، بزعامة الشريف حسين، الثورة على الدولة العثمانية ودخلوا الحرب ضدها، جنباً الى جنب مع القوات البريطانية التي جاءت، وفق الاتفاقات، لتساعدهم على التحرر من سيطرة هذه الدولة. وهكذا، فان الجيش البريطاني، عندما دخل فلسطين في أواخر أيام العام ١٩١٧، استقبل فيها بوصفه حليفاً حرر البلاد ودخلها ليساعد على بناء استقلالها في اطار الدولة العربية الموعودة. وكان المعنيون بالامر من أهل فلسطين، مثلهم مثل نظرائهم في بقية البلدان العربية، تواقين للتعاون مع بريطانيا، وذلك على أساس «ان دولة بريطانيا العظمى لم تخض غمار